الحس الوطني في الشعر العراقي الحديث والمعاصر
بين الرصافي وأحمد مطر

م. لؤي كريم عطية م . حسن سعد لطيف
كلية التربية/جامعة المثنى

الخلاصة:

شكّل الحس الشعبي هاجسا ذاتيا في ذهنية الشاعر العربي الحديث ، ألقى بظلاله على نتاجه الشعري ، فكان نتاجا ثرّا يحمل هموم الناس ويعتاش على مآسيهم ، وكان الرصافي وأحمد مطر يمثلان دليلا واضحا على بروز الحس الشعبي عند شاعرنا الحديث والمعاصر ، فكان هذا البحث محاولة يقصد منها الوصول إلى حقيقة وجود الخصوصية الشعبية في شعر هذين الشاعرين .

المقدمة :

الحس الشعبي في الأدب العربي القديم لا يكاد يكون شيئا مذكوراً، إذ أن الشعر العربي ـ بطبيعته ـ غنائي وجداني ، يهتم الشاعر فيه بحديث القلب وهموم الذات ، ويهتم بما تسعد به نفسه أو تألم منه دون أن يعتني بهموم الناس وشواغلهم إلا بقدر ما ارتبط الأمر بقبيلته التي تمثل لديه الأنا الكبرى .

وربما عُدّ هذا الأمر من مساوئ الشعر العربي على مر العصور ، إذ غابت عنه نزعة التوجه إلى تطلعات المجتمع وأحلام البسطاء من الناس ، كما غابت عنه الملاحم التي كانت تميز أشعار الأمم الأخرى ، لأن الملاحم كانت تحكي معاناة الناس وهموم الفقراء والكادحين ، أما الشعر العربي فقد صُبّ في معاناة الشاعر وتوجهاته النفسية ، لذا وجدنا بعض الأقلام تقدح فيه وتهبط به إلى السفح على شاكلة الدكتور علي الوردي الذي صب على الأدب العربي جام غضبه في كتابه (أسطورة الأدب الرفيع) وأخذ يصفه بصفات تجعله في منأى عن الاتصال بالناس والمجتمع ، وإنما يسير في ركاب الظالمين ويتغنى بمدائح العتاة والمتجبرين ، (ينعت الدكتور علي الوردي الشعر العربي بنعوت نجدها متناثرة في مقالاته ، فهو عنده من حيث القيم بدوي ، ومن حيث الأغراض والبواعث استجدائي ، يجري كله أو جله في ركاب السلطان ، ينظم غزله لدغدغة عواطف الخلفاء والملوك ، ومن يدنو منهم في جاه أو سلطان ، يُراد وصفه للترويح عن نفوس المترفين ، وتطيب به أسمارهم على موائد اللهو والطرب والمجون ، وتحبّر مدائحه في الغزو الظالم والإياب الغانم ، أما رثاؤه فهو التوجع المصطنع والتشاجي المكذوب في حسرة على ما فات الشاعر من مغانم لو بقي المرثي حيا ، وعلى ما يرجو من أهله وقد بقوا أحياء) [1]، وهكذا هو الشعر العربي ـ في نظر الدكتور: الوردي ـ لا ينبسط على معاناة الناس وهموم المجتمع ، ولا يكون للشعب فيه أقل نصيب .

نظريا لا يمكن للشاعر ـ بوصفه مبدعا صاحب إنجاز ، وسيلته اللغة ـ أن يعيش داخل ذاته منفصلا عن بيئته ، بل لا بد له ـ وبنحو الإرغام غالبا ـ أن يشتبك مع غيره في علاقات مختلفة تترك أثرها في منجزه مع تفاوت في قوة ذلك الأثر أو ضعفه ، فبينما نرى (الآخر) حاضرا في شعر فلان نراه أقرب إلى الغياب وراء حضور (الذات) بقوة عند شاعر آخر ، وهكذا فالشعر مذاهب ، وللشاعر وذاته المبدعة خطان من العلاقات ، أولهما : مع المجتمع وأفراده على اختلافهم الاجتماعي أو الطبقي ، وثانيهما : مع السلطات السياسية التي تحكم واقعه وتهيمن على مختلف جوانبه ، التي لابد للشاعر من أن يتخذ منها موقفا محددا يتناسب وقناعته الفكرية بشرعيتها ـ أحيانا ـ أو بميله النفسي نحوها ـ بغض النظر عن شرعيتها ـ أحيانا أخرى ، فهناك من الشعراء من يرتبط بها بعلاقة تفاعلية إيجابية ، فيوظف شعره خدمة لها ، بينما قد يواجهها آخرون بمعارضة أدبية تكتسب أهميتها من قيامها كقناة دعائية تدعم كل

مسلك يعارض تلك السلطات أو يحاول النيل منها ، وبين الموقفين السابقين تتكون مواقف أخرى أبرزها الحياد أو التوفيق بين المطالب المتناقضة ، وهي بلا شك مهمة ليست سهلة على جميع الشعراء ، لأن الشاعر منتم أساسا إلى مجتمعه أو ـ على الأقل ـ إلى طبقته الاجتماعية ، ولأن المسيرة التأريخية أثبتت وبأدلة قاطعة متواترة أن هناك تضادا قائما بين المجتمع وسلطته السياسية في أغلب تجارب التاريخ ومحطاته ، لهذا وذاك كان على الكثير من الشعراء أن يكونوا ـ في مواقفهم السياسية المترجمة شعرا ـ بين أمرين ، إما السير وراء الركب السلطوي تأييدا لخط الحكام ودفاعا عن مسلكهم المتسلط غالبا ، أو أن يكونوا شعراء شعبيين لهم حضورهم الفاعل إلى جانب مجتمعاتهم ، ولهم صوتهم المدافع عن أهدافهم بوجه السلطة الحاكمة ، على الرغم مما يستلزمه الدفاع من تضحيات ، لأن الشاعر يقف هنا بوجه السلطة التي تحكمه مع ما تمتلكه من قوة وجبروت ، وباستقراء بسيط لمسيرة الشعر العربي ندرك أن هناك شعراء بلاطيين وظفوا منجزهم الإبداعي لخدمة سلاطينهم وحكامهم ، وبالمثل هناك شعراء آخرين يمكن أن نصفهم بالوطنيين أو الجماهيريين أو أصحاب الحس الشعبي ، وهم الذين ضمّنوا شعرهم موقفا سياسيا مناهضا للحكام ومؤيدا للمجتمع والجماهير ، لذا فهم ليسوا كأولئك الشعراء الذين أمطرهم الدكتور : الوردي بوابل اللعنات وعلى من عاصرهم من النقاد الذين روجوا لشاعريتهم وعدوها مناهج الفطن فيصفهم قائلا : (نجدهم يحترمون الأديب الذي يتزلف إلى السلاطين والمترفين ، ويعيش على فضلات موائدهم ، ولكنهم في الوقت ذاته يحتقرون من يحاول أن يتزلف بأدبه إلى أبناء الشعب ، وينزل بأسلوبه إلى مستواهم ، إنهم يتهمون من يكتب للشعب بأنه تاجر يرتزق بأدبه ، أما من يكتب للمترفين أو يمدحهم بقصائده سعيا وراء الجائزة فهو في نظرهم أديب عبقري ، وله في قلوبهم مكانة عليا) [٢] .

لا ينطبق هذا الأمر على كل الشعراء في كل العصور ، فهناك شعراء كثر كانوا صوتا مدويا في الدفاع عن حقوق شعوبهم ضد من يتسلطون عليهم ، وترجمانا صادقا لآلام الفقراء والبائسين من ضحايا مجتمعاتهم ، والرصافي واحد من أبرز الشعراء الذين وقفوا إلى صف الجماهير في عصره ، وكان شاهد عيان على حقبة عصيبة من تأريخ أمته [٣] ، ولا كانت أشعاره تدوي بآذان الشعب العربي في زمن الاحتلال الأجنبي للأرض العربية ، ولا زال العراقيون يتغنون بقصائده التي سخط بها على الأنظمة السياسية التي تعاقبت على حكم العراق ، وكانت قصائده الإنسانية التي عبر فيها عن مشاعره نحو أبسط الناس كالأرملة واليتيم لا تنفك تلتصق بقلوب جماهيره في كل حين ، فكان جديرا أن يكون من أبرز شعراء الحس الشعبي في الشعر العراقي الحديث ، وإن انغمار الرصافي في تناول مشكلات الجماهيرقد جعل شعره (ألصق بالواقع وأقرب إلى روح العصر)[٤] .

وإذ يذكر الحس الشعبي في الشعر فلا بد أن يذكر أحمد مطر دليلا عليه ، فهو شاعر المنفى الذي عصفت به رياح الطغاة وحاولت الدكتاتوريات المتعاقبة أن تطمس صورته وتكمم صوته ، ولكنه ظل سيفا مشهرا على كل نظام فاسد في كل أرجاء الوطن العربي ، فلا زالت الحريات تستصرخه ، وتستنجد به حقوق الإنسان البائس في كل بلاد العرب ، إنه صوت الإنسان الكادح والمواطن المثقل بأعباء المواطنة ، إنه صوت الحرية في كل أرض وفي كل زمان ، الحرية التي هي مطلب الإنسان في كل موطن وأوان (فالدفاع عن النفس حق مشروع ، والحرص على الحياة نزوع إنساني طبيعي ، والرغبة في امتلاك الحرية والتمكن من ناصية الأحداث لازمة من لوازم الحياة التي ظل الإنسان يدافع عنها ، ويحرص على الاحتفاظ بها ، ويبدي كل الأساليب التي تجيز له الوصول إليها)[٥] .

ينبغي لنا ـ إذن ـ ونحن نضع الأسس النظرية للشرعية المطلوبة في النظام السياسي ونتعامل معها كدالة نقيس من خلالها حركة الشاعر الإبداعية قبالة الجماهير وطموحاتها ينبغي لنا أن نفرق بين المحتوى المثالي لفكرة النظام الشرعي وبين المحتوى الواقعي لنفس الفكرة ، فالمحتوى المثالي لها يمثل صورة النظام الشرعي في أذهاننا ـ كمدى تنظيري أعلى ـ والتي نقرؤها من خلال فلسفتنا الحياتية الشاملة ، أما المحتوى الواقعي لفكرة النظام الشرعي فهو صورة ذلك النظام كما يعكسها واقع البيئة أو المحيط الاجتماعي الخاص بالشاعر .

يمكن القول : ان لا انفصال واضح بين الرصافي ـ شاعرا ـ وجماهيره العراقية والعربية أيضا ، فقد ولد هذا الشاعر ونمت موهبته ، وتحرك على المستويين الأدبي والسياسي في ظل بيئة اجتماعية عاشت تراكمات الوضع السياسي والاقتصادي المتردي ، وشهدت ظهورا بارزا للأفكار الإصلاحية ذات التوجه القومي ، والتي حاولت الموازنة بين المطالب الوطنية في الاستقلال عن الاحتلال ، والقضاء على الاستغلال ، والمطالب القومية المتلخصة في تحقيق الوحدة الشاملة بين البلدان العربية ، والمحافظة على الهوية الإسلامية التي تشترك بها شعوب تلك البلدان .

وبالتالي فنحن حين نعالج موقف الشعراء من الشعب ، ومدى ارتباطهم بالجماهير أو ابتعادهم عنهم إلى حيث العطاء السلطوي لا بدّ وأن نتبنى فلسفة شاملة ورؤية منطقية واضحة لمقاييس الشرعية التي لا بدّ وأن تتوافر في النظام السياسي كي ما تكون حركة الشاعر الإبداعية ضمنه غير متعارضة مع حركته الجماهيرية الأوسع ، وينبغي التفريق مبدئيا بين الأسس النظرية للشرعية المطلوبة وبين انعكاساتها العملية ، فقد تجتمع السمة الشرعية ـ من الوجهة النظرية ـ في نظام ما دون أن تنعكس في واقعه العملي الذي يمثل الوجه الجماهيري للنظام واليد التي ترسم صورته في الذهنية العامة ، ومن خلال هذين الملحظين ندرك ضرورة تحديد الأسس النظرية لشرعية النظام السياسي من خلال ما يراه الشاعر الشعبي الذي يؤمن بأن الشعب يجب أن يكون صاحب القرار ، والرصافي إذا شئنا تصنيفه كان من الشعراء الذين يرون أن (مهمة الشاعر عنده ليست فنية ولكنها إصلاحية اجتماعية تنشد التغيير ، لافتقار البلد إلى مصلحين وهو في بدء نهضته الحديثة) [٦] .

الواقع أن الرصافي كان وفيا ـ في إبداعه الشعري ـ لما آمن به من أفكار،وليس أدل على ذلك من امتلاء ديوانه الشعري بعشرات القصائد ذات المضامين الوطنية التحررية ، والقومية الوحدوية ، فضلا عن الإنسانية التي ما هي ـ في الحقيقة ـ إلا انعكاس لواقع سياسي متردد، لقد أصبح الرصافي في النصف الأول من القرن الماضي (لسان العراق الصادق ، ينقل عن شعوره ويترجم عن أمانيه ، ويحدو لركبه المجاهد في سبيل استقلاله وغربته بالأداء الحماسي المطرب ، ويصور خلجات نفسه ووساوس أحلامه بالشعر الصريح المعجب، وظل هو والزهاوي وشوقي وحافظ ومطران يؤلفون الأوتار الخمسة لقيثارة الشعر العربي الخالص ، ولكل وتر درجته في الرنين والجهاد والأثر) [٧].

أما أحمد مطر فنجده قد انفصل عن جماهيره العراقية والعربية قسرا ، فعاش مرارة المنفى في لندن ولا زال يعاني عذاب التغرب بعيدا عن شعبه ووطنه ، ولكنه ظل (يحمل هم أمته ، ويحمل وجع الإنسان العربي أينما حل وأينما ذهب ، فهو يحمل قضية أمته في كل خلية منه ، وهو وطن على هيئة إنسان ، ولندن التي يعيش فيها اليوم ليست أكبر من همومه ، ولا مباهجها أكثر من آلامه كما قال ذات مرة)[٨]، ومثلما انقطع عن الساحة العراقية حضوره وتواجده انقطع كذلك صيته الإعلامي ، ولم يصل إلينا شعره إلا نتفا ، لأن العراق كان يعيش حقبة مظلمة انقطع فيها عن الاتصال بالعالم الخارجي وانقطع العالم الخارجي عن الاتصال به ، هي حقبة دمار عاشها العراق في حربه مع دول الجوار ، حربا استنزفت شعبه وقضت على مقدراته وأحلامه ، ولكن الشاعر في منفاه سلط على الطغاة سيف بيانه وأعلن حربا ضروسا على أعداء شعبه وأمته ، فكانت كلماته هي التي تقاتل أشد القتال ، إلا أن التكتيم الإعلامي على شعره كان شديدا ، ولم تكن أشعاره لتصل إلى الوطن العربي مع وجود نوع من الحجابة المركزة عليها ، وتتمثل هذه (الحجابه ـ في المصطلحات النقدية الحديثة ـ بتعطيل أو إيقاف وصول الشعر إلى الجمهور ، وإقلاق الشاعر على مهنته ومستقبله ، وفيها ـ أيضا ـ يمكن تعريض الشاعر إلى ما كان القانون الروماني يسميه (القانون المدني)،وهو عقوبة جرائم معينة تحيل المحكوم عليه بها إلى شيء عاطل عن التعامل المدني...ومن هنا تتضح خطورة العقبة التي تشكلها الحجابة بأنواعها وأشكالها المختلفة أمام الشاعر والجمهور المقبل على الشعر ، وهي عقبة تزداد وعورة كلما ازداد اهتمام الشاعر بمجتمعه أو سياسته أو مستقبله) [٩] .

وربما كان الجمهور يفضل نوعا من العمل الأدبي يكون أقرب إلى معاناته وهمومه اليومية حتى وإن لم يكن عاليا في مستواه الفني، لأن المتلقي يبحث ـ دائما ـ في النص الأدبي عما يلامس محنته ويشترك معه في ألمه وذلك هو (الأساس النفسي الذي يساعد الجمهور على تقبل العمل الأدبي والتفاعل معه أو رفضه والانفصال عنه ، إن ما يقبله المجتمع من الأعمال الأدبية والفنية ليس مقياسا للجودة ضرورة ، فقد تفضل النسبة الغالبة من المجتمع عملا متدنيا في قيمته الفنية)[١٠] لا لشيء إلا لأن النفس تطرب لمن يبث شكواها ويبوح بآلامها ، لأنها ـ في أكثر الأحيان ـ لا تكون قادرة على مثل هذا البوح .

ولبناء تصور كامل عن الموقف الجماهيري للشاعرين الرصافي وأحمد مطر يمكن الإشارة إلى عدة معالم لذلك الموقف .

أولا : الإحساس بمعاناة الشعوب العربية .

ينظر الشاعر إلى محنة الشعوب العربية القابعة تحت ظل الاحتلال بمنظار واحد ، فهناك على الأرض شعب مبتلى بالاستبداد والتبعية ، عاجز عن الحركة لافتقاره لعدتها المتمثلة في الإمساك بخيوط العلم الحديث مع الإيمان بمبادئ الأمة وتبنياتها الإسلامية ، ومن دون ذلك لا يمكن لأي شعب عربي أن يتحرر من قيده ، أو يعيش بهناء ، وتحت هذا الباب يخاطب الرصافي قومه العرب مطالبا إياهم بترك الغفلة [١١] :

أقـــول لقـــومي قـــول حيـــران جـــازع تهـــيج بـــه أشـــجانه فيقـــولُ :
متـــى ينجلـــي يـــاقوم بالصـــبح لـــيلكم ؟ فتـــذهب عـــنكم غفلـــة وخمـــولُ

فهناك ذلة وخنوع وتكاسل عن أداء المسؤولية،وما ذاك إلا لأن العلم مفقود ومنابعه ضحلة[١٢]:

منـــابع العلـــم إن غاضـــت بمملكـــة فاضـــت بســـيل الـــدواهي حولهـــا بـــركُ

دور الشاعر في تنبيه الشعب إلى واقعه المر يتطلب منه ـ حتما ـ اتخاذ نوع من التوجه إلى الجمهور فيه الكثير من التقريع والتهويل ، والهدف إيقاظه من غفلته واستنهاض همه ، لأن الشاعر ـ أيا كان عصره ـ يمتلك موقفا فكريا وسلوكيا تجاه ما يعاصره من أنظمة سياسية وصيغ حكم ، وهذا الموقف يبدو من خلال شعره عبر صيغ الرفض أو عبارات الولاء ، وحتى الصمت والتلهي عن المشاركة الفكرية في صنع أو نقد الواقع يمكن أن يفرز موقفا شاعريا قوامه السلبية والانطواء على الذات ، بعيدا عن الجماهير وطموحاتها ، والواقع الفعلي لتاريخ الشعراء يفرز أعدادا هائلة منهم ممن نادموا السلاطين واتصلوا بهم ، وأعدادا أقل ممن حاربوهم .

وأحمد مطر المعروف بمواقفه العدائية ضد الأنظمة المتغطرسة يتخذ أسلوبا أبلغ في التأثير على الناس ، فبعيدا عن أسلوب الرصافي المتسم بالتمني ـ غالبا ـ كأنه يأمل أن يجد لصوته صدى يُسمع فيلجأ في هذه الابيات إلى التقريع والتوبيخ المفعم بالحث على الثورة ضد الواقع نجد أحمد مطر يتخذ طابعا أكثر إيلاما كأنه يريد أن يخجل المتلقي عند سماع صوته ، فيبعث إليه بمثل هذا اللوم [١٣]:

شـــــعبي مجهـــــول معلـــــوم
لـــــيس لـــــه معنـــــى مفهـــــوم
يتبنـــــى أغنيـــــة البلبـــــل
لكـــــن...يتغنـــــى بـــــالبوم
يصـــــرخ مـــــن آلام الحمـــــى...
ويلـــــوم صـــــراخ المعـــــدوم
يشـــــحذ ســـــيف الظـــــالم صـــــبحا
ويولـــــول لـــــيلا مظلـــــوم
يعـــــدو مـــــن قـــــدر محتمـــــل
يـــــدعو لقضـــــاء محتـــــوم

ينطـــــــــــــــــــق صـــــــــــــــــــمتا
كـــــــــــــــــــيلا يُقفـــــــــــــــــــل
يحيـــــــــــــــــــا موتـــــــــــــــــــا
كـــــــــــــــــــيلا يُقتـــــــــــــــــــل
يتحاشـــــــــــــــى أن يـــــــــــــــدعس لقمـــــــــــــــا
وهـــــــــو مـــــــــن الـــــــــداخل ملغـــــــــوم
قيـــــــــل : اهتـــــــــف للشـــــــــعب الغـــــــــالي
فهتفـــــــــت : يعـــــــــيش المرحـــــــــوم

وربما وجُه الرصافي خطابا قاسيا للأمة العربية مذكرا بحقيقة أن الاحتلال ما وعد شعبا فوفى بوعده ، ولا وهب لأمة حريتها دون أن يكون لها دور في انتزاعها منه عنوة ، وكيف يكون ذلك ؟ والأرض العربية ـ في عهده ـ مازالت تمتلئ بجنود المحتلين وطائراتهم[١٤] :

معشـــــر العـــرب أيـــن أنـــتم مـــن القـــو ؟ م إذا مـــــا تـــــمّ انقـــــلاب الزمـــــان
أنيـامٌ والدهر يفتـح فيكـــــم مـــــن جديـــــديه مقلـــــتي يقظـــــان ؟
نقـــض القـــوم عهـــدكم قبـــل هـــــذا واســـــتغلوا دفـــــائن الأوطـــــان
وأقـاموا بهـــا قواعـد جـــوّ لاحـــــتشاد الجنـــــود والطيـــــران
ثـــم بثـــوا بهـــا العيـــون يعيثـــون فســـــادا فـــــي ســـــوحها والمبـــــاني
ليســـت تلـــك العهـــود يـــا قـــــوم إلا كعهـــــود الـــــذئاب للحمـــــلان

وهكذا فقد قدر للرصافي أن يشعر بما يشعر به قومه شعورا دقيقا ، لأن نفسه كانت عراقية خالصة ، واستطاع أن يصوغ هذا الشعور في لغة جزلة متينة صياغة باهرة ، وبذلك تبوأ مكانته في تأريخ شعرنا الحديث .

أما أحمد مطر فإنه يضع نوعا من الموازنة بين ما يفعله الأعادي وما يفعله حكام العرب ، منبها إلى أن الغرب يشحذون الهمم ضدنا بخبرتهم في إنتاج الأسلحة المدمرة ، وحكامنا لم يكتشفوا ـ إلى اليوم ـ آية الجهاد ضدهم ، بل كان همهم منصبا على محاربة الشعب المغلوب على أمره ، وتجويعه ، وقطع أياديه [١٥] :

الأعـــــــــــــــــــادي
يتســـــلون بتطويـــــع الســـــاكين
وتطبيـــــــــــع الميـــــــــادين
وتقطيـــــــــــع بـــــــــلادي
وســـــــــلاطين بـــــــــلادي
يتســـــلون بتضـــــييع الملايـــــين
وتجويـــــــــع المســـــــاكين
وتقطيـــــــــع الأيـــــــادي
ويفـــــــــــــــــوزون
إذا مـــا أخطـــأوا الحُكـــم بـــأجر الاجتهـــاد
عجبـــــــــــــــــا !
كيـــــــــف اكتشـــــــــفتم
آيـــــــــة القطـــــــــع
ولـــــم تكتشـــــفوا رغـــــم العـــــوادي

آيـــــــــــــة واحـــــــــــــدة
آيـــــــــــــات الجهـــــــــــــاد

ويمعن الرصافي في هجاء الغرب المستعمر والمستغل لثروات الشعوب ، ليكشف صورته أمام من آمن بشرعية خطه وإنسانية مسعاه ، فيصف المستعمرين بأنهم نخاسو الشعوب وإن ادعوا في دساتيرهم تحرير الفرد من الرق [١٦] :

إلـــى الله نشـــكو الأمـــر مـــن مدنيـــة تعـــارض فـــي أوصـــافها الكـــذب والصـــدقُ
وكـــم قـــد ســـمعنا الغـــرب تدعـــي بأشـــياء مـــن بطلانهـــا ضـــحك الحـــقُ
فهـــم منعـــوا رق الأسيـــر وإنمـــا أباحـــوا أن يشـــمل الأمـــم الـــرّقُ
ألـــم تـــرَ فـــي الشـــعب العراقـــي أمـــةً مـــن الأســـر مشـــدودا فـــي أعناقهـــا ربـــقُ
قـــد اختـــط فيـــه الســـيف للقـــوم خطـــة مـــن العنـــف لـــم يمـــرر بساحتهـــا رفـــقُ

وبالمثل فإن أحمد مطر يرى أن الغرب هم من يسيّر أمور بلادنا ، وقد جعلوا من الحكام الطغاة أدوات لهم لتحقيق مآربهم ، وليس الشعب إلا ملكا مشاعا لهم ، فإن قاوموهم هلكوا ، وإن أذعنوا لهم جاعوا ، لأن الشعب هم من أسلم لهم القياد ، ولم يجعل لنفسه كيانا يبني ويؤسس عليه أمور دولته [١٧] :

هـــــذي الـــــبلاد ســـــفينةٌ
والغـــــــــرب ريـــــــــح
والطغـــــاة هـــــم الشـــــراعُ
والراكبـــون بكـــل ناحيـــة مشـــاعُ
إن أذعنـــوا . . عطشـــوا وجـــاعوا
وإن تصـــــــدوا للريـــــــاح
رمـت بهـم بحـرا . . ومـا للبحـر قـاعُ
وإذا ابتغـــوا كســـر الشـــراع
ترنحـــوا معهـــا وضـــاعوا
دعهـــــــــــــــــم
فـإن الـراكبين هـم الفـرائس .. والسباعُ
دعهـــــــــــــــــم
فلـــوا شـــاءوا التحـــرر لاســـتطاعوا

ولذلك يطرح أحمد مطر هذا التساؤل ، إذا كان الغرب يحمينا فلماذا نشتري منه السلاح دائما؟ وإذا كان هو العدو فلماذا نجعله يتحكم في أمورنا ونسلم إليه زمام قيادنا ؟ ويبدو أن الشاعر يعرف حق المعرفة أن المصلحة القائمة بينهم وبين الحكام هي التي أعطت لهم هذا الحق في التدخل بكل صغيرة وكبيرة من أمور بلادنا ، وهي التي جعلتنا سوقا لأسلحتهم وبضائعهم [١٨]:

إن كـــان الغـــرب هـــو الحـــامي فلمـــاذا نبتـــاع ســـلاحه ؟
وإذا كـــان عـــدوا شرســـا فلمـــاذا ندخلـــه الســـاحة ؟
إن كـــان البتـــرول رخيصـــا فلمـــاذا نقعـــد فـــي الظلمـــة ؟
وإذا كـــان ثمينـــا جـــدا فلمـــاذا لا نجـــد اللقمـــة ؟
إن كـــان الحـــاكم مســـؤولا فلمـــاذا يـــرفض أن يُســـأل ؟
وإذا كـــان ســـمو إلـــهٍ فلمـــاذا يسمـــو للأســـفل ؟

وعي الشاعر العراقي بشمولية المحنة العربية بوجود قوى الاحتلال المستغلة للشعوب يجعله يسهم عن طريق شعره السياسي في تأييد خط الجماهير التي تجاهد في الوقوف بوجه المستعمر أيّا كان مصدره وكيف كان شكله ، فالرصافي ـ مثلا ـ ينعى دمشق ومنكوبيها بلسان حالها ، فيقول[١٩] :

أنـا البلـدة الثكلـى دمشـق ابنـة العلـى أمـا أنـت فـي مغنـى دمشـق قطـينُ
ألـم تـرَ أبنـائي يسـاقون للـردى فمـنهم قتيـل بالظبـا وسجيـنُ
فهـذي دمشـق يـا كـرام وهـذه أحاديـث عنهـا كلهـن شـجونُ

وإزاء محنة الشعب الليبي في ظل الاحتلال الإيطالي يقول مخاطبا طرابلس وقتلاها [٢٠] :

لـك الله يـا قتلـى طـرابلس التـي بهـا حكّـم الطليـان أسـيافهم غـدرا
أدامـوا بهـا قتـل النفـوس نكايـة إلـى أن أصـاروا كـل بيـت بهـا قبـرا

وفي أهل برقة ينشد متألما لمعاناة جماهيرها وسط الحروب والنكبات [٢١] :

يعـز علينـا أهـل برقـة أنكـم تـدور علـيكم بالـدمار رحـى الحـربِ
وأنّـا إذا مـا تسـتغيثون لـم نجـد إلـيكم علـى بعـد المسافـة مـن دربِ
ومـا نحـن إلا الليـث شُـدت قيـوده وألقـى حيـا شبلـه فـي فـم الـذئبِ

وهكذا نجد للرصافي حسه الشعبي الواضح ، فأينما كانت الجماهير ، وأينما تكابد عليها الهم كان شعره قائما في الدفاع عنها أو شرح أبعاد محنتها ، وصولا للمناسب من حلولها ، وتحت هذا الهدف اختلفت ـ كما اتضح ـ توجهات الرصافي لتشمل كل المساحة العربية ، لأنها تعيش الابتلاء ذاته تحت حكم الممثل الغاشم .

وأحمد مطر نراه لا يبكي رقعة معينة من الوطن ، بل يبكي كل الأرض العربية ، ويندب ما آلت إليه أمورها من تسلط البغاة ، وتكالب الأعداء عليها ، ويتألم لأحوال الشعوب العربية ، وما تتعرض له من ويلات الحروب وقهر السلاطين ، فها هو يندب بيروت وما تعانيه من فتن داخلية وحروب أهلية [٢٢] :

قفـوا حـول بيـروت
صـلوا علـى روحهـا واندبوها
وشـدوا اللحـى وانتفوهـا
لكـي لا تثيـروا الشـكوك
وسـلوا سـيوف السـباب لمـن قيـدوها
ومـن ضـاجعوها
ومـن أحرقوهـا
لكـي لا تثيـروا الشـكوك
ورصـوا الصـكوك
علـى النـار ((كـي لا تطفئوهـا))
ولكـن خـيط الـدخان
سيصـرخ فـيكم دعوهـا
ويكتـب فـوق الخرائـب
((إذا دخلـوا قريـة أفسـدوها))

وكذلك هو يبكي الكويت وما تعرضت له من نكبات ١٩٩٠ ، على الرغم من أن معاناتها جاءت من بلده العراق ، إلا أنه حمل في قلبه حزنا كبيرا لمصابها ، لأنها البلد الوحيد الذي احتضنه بعد هروبه من أتباع السلطة في العراق آن ذاك [٢٣]:

أنـا يـا كويـت قـد اكتويـت وربمـا بشـواظ نـاري تكتـوي النيـرانُ

صحراء همي ما لها من آخر وبحار حزني مالها شطآنُ
تبكي شراييني دما في مدمعي وبأدمعي تتضاحك الأحزانُ
أنت القريبة في اللقاء وفي النوى وأنا بحبي الغارق الظمآنُ
لي منك ما للقلب من خفقانه ولديك مني الوجه والعنوانُ

ولكن أحمد مطر لم يتألم لبلد عربي كما تألم لفلسطين ، ولم يبك كما بكى لمعاناة شعبها ، فقد كانت مأساة فلسطين وأهلها جزءا من مأساة حياته [٢٤] :

أهل الضفة . أنتم حقٌ
وجميع الناس أباطيل
أنتم فاتحة الأحزان
وأنتم خاتمة القرآن
وأنتم إنجيل الإنجيل
يا من تعتصمون بحبل الله جميعا
وبأيديكم حجر من سجيل
سيروا والله يوفقكم
هزوا الدنيا
وهنا ثوار التمثيل
يهدون لكم ألمع بدلات السهرات
وأسمى أدوات التجميل
من أجل عيون ضحاياكم
يعتصمون بحبل غسيل

فالابيات تحمل في طياتها الهم الفلسطيني وثورته المشروعة ضد الاحتلال،هذه الثورة التي تبغي بحجارتها وحسها الوطني المفعم بحب الأرض والتعلق به الى رفع الظلم عن أبناءها ومقارنة هذا اللون من الوطنية بثوار التمثيل الذين يقفون عند حدود المساعدة الهامشية والإغاثة الشكلية،ولا يبدو أن هذا غريب ، فثمة ارتباط تأريخي بين الجماهيرية بما تعنيه من حضور للشاعر بين أهله وجمهوره وبين وضوح الأفكار والمضامين شرطا لتحقق الفاعلية لذلك الحضور ، وقديما كان ثمة دافع اجتماعي يُلزم الشاعر بأن يكون واضحا في قوله وكشفه لما تتعاوره من أفكار وعواطف ليسهل الوصول إليها دون ممانعة ، بعد أن أوكلت إليه مهمة الدفاع عن قبيلته والانتصار لها والإعلام بمكارم أخلاقها ، فشعر مثل هذا الشاعر يتوجه ـ أساسا ـ للعامة من الناس ، وآليته في ذلك سرعة الفهم ، وسبيله إليهم منه ما يمكن أن تتناقله الشفاه سماعا في أسواق الأدب ومجالس الأدباء والحكام ، وهو ما يتناقض كل التناقض مع التعقيد .

وعلى هذا فمن غير الممكن الجزم بخلو الشعر العربي ـ عامة ـ من ارتباط حسي كبير بالجمهور ومعاناته ووجوب التواصل معه على الدوام لأنه الوسيلة الإعلامية الوحيدة لذيوع الشعر واتصاله بغيره من القبائل ، فلم تكن لغته لتخاطب الخاصة ويثقل فهمها على العامة ، ولم تكن أفكاره ومعانيه لتطرب لها مسامع القلة وهي تتجه بخطابها إلى الكثرة الفائقة .

ثانيا : الوقوف إلى جانب الشعب العراقي في معاناته .

يقف الرصافي مع شعبه العراقي في محنته تحت نير الاحتلال والوصاية الأجنبية مؤمنا بأن الشاعر الحق هو الذي ينقاد مع الجماهير حيثما سارت إلى أهدافها المشروعة لا الذي ينزوي مبتعدا

داخل القصور وبلاطات السلاطين ، وهو بهذا المعنى يعرب عن موقفه الرافض لكل سلطة جائرة لا تنظر إلا لمصالحها ، ورفضه مصاحبة الطغاة ولو كانوا ملوكا متنفذين ، فيقول [٢٥] :

عاهدت نفسي والأيام شاهدةٌ ألاّ أقرّ على جور السلاطين
ولا أصادق كذابا ولو ملكا ولا أخالط إخوان الشياطين
ما كنت أحسب بغدادا تحلئني عن ماء دجلتها يوما وتظمئني
حتى تقلد الأمر فيها زعنفةٌ من الأناس بأخلاق السراحين

وهؤلاء الحكام الجبابرة يتخذ معهم أحمد مطر أسلوبا آخر أكثر سخرية واستهزاء ، فهو يبني علاقته بهم على نوع من التبادل المنفعي ، إذ لولاه ولولا أشعاره المجنونة لتوقفت أعمالهم ، وعُطلت الكثير من مؤسساتهم ، فهو يراهم يرتزقون من جنونه ، لأن معظم أعمالهم قائمة على المطاردة والاعتقال والاستجواب والتعذيب وملء السجون ، فإذا لم يتواجد هو وأمثاله فإن كل هذه الأعمال تتعطل ، فيتعرضون للبطالة ، ولا يجدون ما يأكلون [٢٦] :

آه لو يدرك حكام بلادي
من أكون
آه لو هم يدركون
لدعوا لي بالبقاء
كل صبح ومساء
أنا مجنون
أجل أدري
وأدري أن أشعاري جنون
لكن الحكام لولاي
ولولا هذه الأشعار ماذا يعملون ؟
فإذا لم أكتب الشعر أنا
كيف يعيش المخبرون ؟
وإذا لم أشتم الحكام
من يعتقلون ؟
وإذا لم أعتقل حيا
فمن يستجوبون ؟
وبماذا يطلق الصوت وكيل الادعاء ؟
وبماذا يأتي أرباب القضاء
يعمل أرباب القضاء
وعلى من يحكمون ؟
وإذا لم يسجنوني
فلمن تفتح أبواب السجون ؟
هؤلاء البؤساء
هم يدد الحكم
ولولا أنني حيّ لطاروا في الهواء
فأنا أركض والمخبر والشرطيّ والسجان والجلاد والفراش
والكاتب والحاجب والقاضي

ورائـــــــــــــــي يركضـــــــــــــــون
كلهـــــــم باســـــــمي أنـــــــا يشـــــــتغلون
كلهـــــــم مـــــــن خيـــــــر شـــــــعري يـــــــأكلون
آه لـــــــو يـــــــدرك حكـــــــام بـــــــلادي العقـــــــلاء
آه لـــــــــو هـــــــــم يـــــــــدركون
أنهـــــــم لـــــــولا جنـــــــوني . . عـــــــاطلون
لرمـــــــوا تيجـــــــانهم تحـــــــت الحـــــــذاء
وأتـــــــوا مـــــــن تهمتـــــــي يعتـــــــذرون

والرصافي يقف ـ دائما ـ موقف المعارضة الصارمة لكل حكومة عراقية لا تلزم نفسها إلا الكذب والزيف ، إذا كانت شعاراتها مظاهر خادعة ووعوده أباطيل كاذبة ومظاهر السيادة فيها من علم ودستور وبرلمان ماهي إلا أسماء لا تحمل من معانيها شيئا ، ولذلك يقول في بعض تلك الحكومات [٢٧] :

هـــذي حكومتنـــا وكـــل شموخهـــا كـــذب وكـــل صنيعهـــا متكلـــفُ
وجهـــان فيهـــا : باطـــل متستـــرٌ للأجنبـــي ، وظاهـــرٌ متكشـــفُ
والبـــاطن المســـتور فيـــه تحكـــمٌ والظـــاهر المكشـــوف فيـــه تصـــلفُ
علـــمٌ ودســـتورٌ ومجلـــسُ أمـــةٍ كـــلٌ عـــن المعنـــى الصـــحيح محـــرفُ
أســـماء لـــيس لنـــا ســـوى ألفاظهـــا مـــا معانيهـــا فليســـت تُعـــرفُ
مـــن يقـــرأ الدســـتور يعلـــم أنّـــه وفقـــا لصـــك الانتـــداب مصنـــفُ
مـــن ينظـــر العلـــم المرفـــرف يلقـــه فـــي عـــز غيـــر بنـــي الـــبلاد يـــرفرفُ
مـــن يـــأت مجلســـنا يصـــدق أنـــه لمـــراد غيـــر النـــاخبين مؤلـــفُ

فكل ما يراه الشاعر أمامه ليس إلا أشياء وُضعت لخدمة المحتل وأعوانه ، بينما تُركت الجماهير تعاني مرارة العيش وشظفه في جم من الصبر لن يمكث طويلا حتى يتحول إلى ثورة تطيح بأعداء الشعب ، فيصورهم الشاعر بهذا المنظر [٢٨] :

الشـــعب فـــي جـــزع فـــلا تستبعـــدوا يومـــا تثـــور بـــه الجيـــوش وتزحـــفُ
وإذا دعـــا داعـــي الـــبلاد إلـــى الـــوغى أتظـــن أن هنـــاك مـــن يتخلـــفُ

وعند أحمد مطر كأن التاريخ يعيد نفسه ، فمثلما اشتكى الرصافي من حكوماته التي تسلط عليها الغرب والانتداب ، ورأى أن مظاهر السيادة فيها ما هي إلا سراب ، ودعا في نهاية الأمر إلى التحذير من ثورة الشعب القادمة التي سوف تعصف بمثل هذه الحكومات المستبدة ، يرى أحمد مطر هو الآخر أن الأرض التي نعيش عليها هي للأمريكان وللدول القوية التي ترعى مصالحها في كل أرض ، وأن البلاد لا يمكن أن تمتلك حريتها إلا إذا امتلكت أسباب القوة التي تمكنها من الحفاظ على هيبتها وسيادتها [٢٩] :

الأرض أمريكيـــــــــــــــــــــــة
و (مجلـــس الأمـــن) هـــو اســـمٌ إنمـــا
معنـــى المســـمى : (موقـــف الوحشـــية) !
والـــــدول الدائمـــــة العضـــــوية
دائمـــــــة لأنهـــــــا قويـــــــة
جلـــــــــدتها ثلجيـــــــــة
وروحهـــــــــا ناريـــــــــة
وعنـــــــدها ضـــــــمائرٌ

يمكنهـــا النـــوم علـــى العواصـــف الرعديـــة
لكـــــــن تفـــــــز فجـــــــأة
لـــو همســـت عـــن بعـــد ألفـــي ســـنة ضـــوئية
أطماعهـــــــــا الشخصـــــــــية
وأنـــــــتِ يـــــــا صـــــــديقتي
علـــــــى امتـــــــداد دربهـــــــا
مفروشـــــــــــة مطويـــــــــــة
حســـــــب طقـــــــوس النيـــــــة
كـــي تملكـــي كينونـــة فـــي الغابـــة الأرضـــية
وكـــــــي تكـــــــوني حـــــــرة
أيتهـــــــــا الحريـــــــــة
لابـــــــــدّ أن تمتلكـــــــــي
قنبلـــــــــة ذريـــــــــة

وإذ يستفرغ الرصافي جهده في تنبيه ساسة البلاد إلى حقيقة ما يراد بالشعب دون أن يجد بادرة وعي لما يقوله ينتهج سبيل التوبيخ القاسي ليخاطب قومه بأن عليهم أن يقبلوا بالاحتلال والتقسيم ما داموا غير قادرين على الوقوف بوجه من يروم بهم ذلك ، ومن مضامينه في هذا المعنى [٣٠]:

إن قيـــــــل : هـــــــذا شـــــــهدكم مـــــــرّ ، فقولـــــــوا : علقـــــــمُ
أو قيـــــــل : إن ثمادكـــــــم ســـــــيلٌ ، فقولـــــــوا : مفعـــــــمُ
أو قيـــــــل : إن بلادكـــــــم يـــــــاقومُ ســـــــوف تقسّـــــــمُ
فتحمّـــــــدوا وتشكّـــــــروا وترنحـــــــوا وترنمـــــــوا

وبمثل هذه السخرية يواجه أحمد مطر الشعب الذي يرزح تحت وطأة الظروف القاسية ، وعنت الطغاة المستبدين ، وفي الوقت ذاته يتلقى عبارات التعظيم والتبجيل التي يجود بها عليه الطاغية إذا توجه إليه بالخطاب السياسي ، وهو قابع تحت نير الظلم والتسلط يتلقى ـ دائما ـ عبارة : (أيها الشعب المجيد) ، ويعاني من الاستعباد ويلاقي الخوف أينما اتجه [٣١] :

(أيهـــــا الشـــــعب المجيـــــد)
وســـليل المجـــد مســـلولٌ مـــن الوجـــد
على قارعة الأمجاد يستجدي فضالات العبيد
(أيهـــــا الشـــــعب المجيـــــد)
يصـــعد التصـــفيق مـــن بـــين أيـــادي الشـــعب
مـــــــن ثقـــــــل الحديـــــــد
(أيهـــــا الشـــــعب المجيـــــد)
لعنـــة الله علـــى مجـــدك هـــذا والمجـــد التليـــد
أي مجـــــــد يـــــــا بليـــــــد
كلمـــــة يبتاعـــــك الـــــداني بهـــــا دومـــــا
ويشـــــــــــريك البعيـــــــــــد
علكـــــة يبصـــــقها الطـــــاغي المـــــولي
ويـــــوالي مضـــــغها الطـــــاغي الجديـــــد

ويمكن أن نستشف من شعر الرصافي أنه حين يواجه حكوماته العراقية الانتهازية يطرح أمامها وأمام الجماهير التي يريد لها الوعي سبيل الخلاص من الوضع المتردي الذي تعيشه البلاد ، فإلى جانب إيمانه بالعلم هاديا للأمم على طريق النهوض يرى أن الاستقلال الاقتصادي ، والاستغناء عن الغرب أول ذلك الخلاص ، لأن الشعب المحتاج إلى سواه ليس سيد نفسه ، إنما هو تابع ذليل لمن يمده بحوائجه [٣٢] :

لا يستقل بسيفه الشعب الذي لا يستقل بنقده المفقود
يا قوم أنتم مثل غارس كرمة وسواه منها قاطف العنقود

لمثل هذا وذاك يرى الرصافي أهمية استثنائية للجيش ، فبدونه لا يمكن لحقوق الناس أن تصان ، ولا لمجد الأمم أن يعاد ، وفي هذا المعنى يقول مخاطبا جماهيره [٣٣] :

أرأيتم ملكا بغير الجنودِ إنما الملك قائم بالجنودِ
فاجمعوا الجيش بالعراق ليدعى ما به من طريفكم والتليدِ

ويرى الشيخ الشبيبي أن (ميزة شعر الرصافي ـ من حيث معناه ـ في استقلال للرأي والفكر ومجاهرة بالمعتقد على علاته هو تعبير عن كل ما يجول بخاطره ، ولو كان ما فيه من الخروج على كل قانون محترم في بيئته) [٣٤] .

ويدعو أحمد مطر إلى أسباب البقاء ، من أجل أن يظل الأمل قائما حتى تسترد الأرض وتعود الحرية ، يدعو الشعب إلى التصدي ، وإلى مواصلة الصمود ، والصبر على مرارة الحياة وشظف العيش كي تظل فسحة الأمل قائمة ، فيقول [٣٥]:

ما عندنا خبز ولا وقود
ما عندنا ماء ولا سدود
ما عندنا لحم ولا جلود
ما عندنا نقود
كيف تعيشون إذن ؟
نعيش في حب الوطن
أين تعيشون إذن ؟
نعيش خارج الزمن
الزمن الماضي الذي راح ولن يعود
الزمن الآتي الذي ليس له وجود
فيم بقاؤكم إذن ؟
بقاؤنا من أجل أن
نعطي التصدي حقنة ، وننعش الصمود
لكي يظلا شوكة
في مقلة الحسود

ولكي يُبنى وطن كالعراق ، وتصان حقوق شعبه لا بدّ لساسته أن يكونوا وطنيين على الحقيقة ، وأن يسيروا حيث سارت مصالحه ، وإذا وقع العكس واختلفت موازين الأشياء فليس ثمة تقدم ولا نهوض ، ولذلك يقول الرصافي [٣٦] :

من أين يُرجى للعراق تقدمٌ وسبيل ممتلكيه غير سبيلهِ
لا خير في وطن يكون السيف عند جبانه والمال عند بخيلهِ
والرأي عند طريده والعلم عند غريبه والحكم عند دخيلهِ

وقـــد استبـــد قليلـــهُ بكثيـــره ظلمـــا وذلّ كثيـــرهُ لقليـــلهِ

وربما تمنى الشاعر لو أن الحرب تقوم وتشتعل في البلاد مع جيوش البلاد الأخرى لا لشيء إلا لينشغل جيش النظام بالحرب مع جيش العدو ، فيعيش الشعب لحظات من السلام ، وهي نظرة سوداوية يتبناها أحمد مطر هربا من رهبة النظام الحاكم [٣٧] :

طـــــوال أعـــــوام الخصـــــام
لـــــم نكـــــن نشـــــكو الخصـــــام
لـــم نكـــن نعـــرف طعـــم الفقـــد أو فقـــد الطعـــام
لـــم يكـــن يضـــطرب الأمـــن مـــن الخـــوف
ولا يمشـــــي إلـــــى الخلـــــف الأمـــــام
كـــل شـــيء كـــان كالســـاعة يجـــري بانتظـــام
هاهنـــا جـــيش عـــدو جـــاهز للاقتحـــام
وهنـــا جـــيش نظـــام جـــاهز للانتقـــام
مـــن هنـــا نســـمع إطـــلاق رصـــاص
مـــن هنـــا نســـمع إطـــلاق كـــلام
وعلـــى اللحنـــين كنـــا كـــل عـــام
نـــولم الـــزاد علـــى روح شـــهيد
وننـــــــــــــــــــــام
وعلـــــــى غيـــــــر انتظـــــــار
زُوجـــت صـــاعقة الصـــلح بزلـــزال الوئـــام
فاســـــــــتنرنا بـــــــــالظلام
واغتســـــــــلنا بالســـــــــخام
واحتمينـــــــــا بالحِمـــــــــام
وغـدونا بعـد أن كنـا شـهودا موضـعا للاتهـام
وغـــدا جـــيش العـــدا يطرحنـــا أرضـــا
لكـــي يـــذبحنا جـــيش النظـــام
أقبلـي ثانيـة أيتهـا الحـرب لنحيـا فـي سـلام

يمكن أن نلحظ من خلال الأمثلة السابقة أن للرصافي حسه الشعبي وشعوره الوطني البارز تجاه جماهيره وهمومها المصيرية في ظل الاحتلال البريطاني المباشر من جهة ، والعجز الواضح للقوى الوطنية عن صياغة حلول عراقية لما يمر به البلد من أزمات سياسية واقتصادية واجتماعية من جهة ثانية ، والملفت للنظر في شعر الرصافي أنه كان عاطفيا من جهة توهجه بالمشاعر الملتهبة تجاه شعبه ومعاناته إلا أنه يتضمن في طياته أنواعا من المعالجة العقلية الهادئة لأسباب تلك المعاناة ، وما يمكن أن يكون حلا ناجعا لها ، وهو ما يسمح لنا بالقول : أن الرصافي ـ في شعره السياسي ـ كان جماهيريا ذا نزعة إصلاحية واضحة المعالم لا يمكن التغافل عنها أو الحط من شأنها .

أما أحمد مطر فيتضح من شعره ثورته اللا متناهية على الأنظمة الفاسدة ، وتركيزه على توعية الشعب ، من خلال زرع روح الثورة فيه ، وذلك عن طريق بسط معاناته أمام عينيه ، وتنبيهه إلى واقعه المذل ، وأنه يملك القدرة والعزم على تغيير هذا الواقع ، وعلى امتلاك زمام أمره بيديه إذا شاء ، وأحيانا يتخذ أسلوبا فيه الكثير من السخرية الهادفة المرة والتهكم الحزين كأنه يريد أن يغرس في نفس جماهيره شيئا من الذلة الزائدة لعله ينتفض لنفسها ويثأر لكرامتها ، لذا فإن شعره يخلو ـ غالبا ـ من التوجه العاطفي لكنه لا يخلو من التوجه الإنساني ، والإحساس بمعاناة الإنسان فردا وجماعة ، ولم ييأس في أية

لحظة من محاولة إصلاح هذه الأمور الفاسدة في موطنه كما فعل كثير من الأدباء الذين عجزوا عن تقويم أوضاع مجتمعاتهم ، فابتدعوا ما عُرف بنظرية الفن للفن للهروب من علاج مساوئ المجتمع وأنظمته ، وقد عاشت هذه النظرية (في عصر ضاق فيه الأدباء بجمهورهم ، فانصرفوا عنه يائسين من إصلاحه ، ورأوا أن الأدب يجب أن يتجه إلى الخاصة لا إلى العامة ، ونشدوا فيه متعة نفسية موقوتة ، تمثل فيها السخط على ما يسود المجتمع من شرور ، وكان هذا السخط نفسه معنى الطموح إلى إصلاح الجمهور كي يشارك الأدباء مشاعرهم) [٣٨] .

ثالثا : الأبعاد الاجتماعية والإنسانية في شعر الرصافي وأحمد مطر .

إلى جانب ما تقدم تبدو جماهيرية الشاعرين واضحة ـ أيضا ـ في المنحى الاجتماعي الإنساني الذي ظهر في كثير من قصائدهما المشتملة على مضامين إنسانية يراها الشاعران في واقع شعبهما المظلوم ، فيعرضانها بتلك اللمسة الفنية الخاصة ليتنبه أرباب الحكم والمتنفذين في بلادهما إليها ، ويمكن القول : أن عرض الرصافي لتلك الأبعاد كان عاما وفي إطارها الإنساني المطلق إلا أنه ـ في الوقت نفسه ـ يمكن النظر إليها بوصفها تعبيرا عن واقع اجتماعي حافل بالمعاناة لشعب ابتلي بالاحتلال والاستغلال والعجز عن الخلاص ، ومن شواهده في هذا المجال قصيدته في وصف الأرملة ، في نحو يتفاعل فيه الشاعر معها ، ويصيغ تجربته من خلالها في حوارية إنسانية ، من مثل قوله [٣٩] :

لقيتها ليتني ما كنت ألقاها تمشي وقد أثقل الإملاق ممشاها
أثوابها رثة والرجلُ حافيةٌ والدمع تذرفه في الخدّ عيناها
بكت من الفقر فاحمرت مدامعها واصفرّ كالورس من جوع محيّاها
مات الذي كان يحميها ويسعدها فالدهر من بعده بالفقر أشقاها

وإذ يتعاطف معها الشاعر فيمنحها ما جادت به يداه ينطق على لسانها كلمته الهادفة [٤٠] :

لو عمّ في الناس حسّ مثل حسك لي ماتاه في فلوات الفقر من تاها
أولى الأنام بعطف الناس أرملة وأشرف الناس من في المال واساها

وإذا كان الرصافي واضحا في أفكاره فما ذاك إلا لأنه يخاطب شعبا يحتاج إلى الوضوح ليفهم ما يجب أن يكون له وما عليه ، لذا فإن لغته وأسلوبه نحيا هذا المنحى البسيط دون أن يضعفهما ذلك ، فقد ظل يصوغ شعره في لغة جزلة ومتينة صياغة باهرة ، مرتكزا على عمق المعاني الإنسانية في بث أفكاره التي تهدف إلى التوعية وتعد بالأمل .

وعلى هذا النحو من الإنسانية يتعامل أحمد مطر مع فتاة مغربية رآها ـ صدفة ـ في أحد فنادق لندن ، وقد وجد أحزانها تطغى على قسمات وجهها ، فقبل أن تجذبه إليها العروبة أو الإنسانية جذبه إليها حزن ممتد إلى غير منتهى كأنه رباط مشترك يجمع بينهما ، وكم كان صعبا على الشاعر أن يترجم لنا هذه الأحاسيس التي تطغى على نفسه لو لم يكن يمتلك من صفاء الذهن ومقومات اللغة ما أعانه على تصويرها كما وردت وهو يجد هذه العربية الغريبة البائسة تتخلى عن أثمن ما تمتلكه الحرة من أجل أن يكون لها ـ في المستقبل ـ بيت في وطنها يؤيها ويؤي أسرتها ، فيعود الشاعر بالنتيجة إلى السبب الحقيقي لهذه المأساة الإنسانية [٤١] :

النـــزل يغـــرق فـــي القتـــام
فلنـــــــدن ليـــــــلٌ
ومـــوج البحـــر يغـــرق لنـــدنا
لـــيلان يقتحمـــان فـــي أعماقنـــا
لـــيلا طـــويلا مزمنـــا
وبقربنـــــــــــــــا

جلســـت تغالـــب نومهـــا . . شـــمسٌ
وتنضـــــــــــح بالســـــــــــنا
مـــــــن حولنـــــا وتمـــــــدنا
بصـــــــــراخ أهـــــــــدابٍ
يتـــــرجم صـــــمتها بســـــعارنا
* * *
الحـــزن يـــا أختـــاه يكشـــف مـــا انثنـــى
الحـزن حبـل مـن لحـاء النـار يـربط بيننـا
فـــــالحزن يـــــا أختـــــاه
لا ينمـــــو بغيـــــر بلادنـــــا
* * *
أتفـــــــــارقين بلادنـــــــــا ؟
لتهـدمي شـرف العروبـة فـي بـلاد عـدونا
إني أهدّمه لأبني في بلادي من حجارة عفتي
بيتـــــــــا لنـــــــــا
وبكت
فسـال الكحـل فـي الـدمعات لـيلا رابعـا
فأذابنـــــــــا وأســـــــــالنا

وهكذا لا بد للشاعر ولسائر الناس أن يكون لهم شعور بالآخرين ، ومن يكن له ذلك فلا بد أن يلتفت إلى معاناة الفئات البسيطة من الناس لاسيما من يتميز عن سواه بوضع إنساني خاص ، وعلى المنوال نفسه يتألم الرصافي لحساسية ظرف الأيتام في العيد ، فيجري في بعض قصائده حوارا مع يتيم بائس ، بدا على وجهه الحزن على الرغم من مباهج العيد التي بدت على غيره ، فيقول [٤٢] :

هنالـــك علـــى مهـــل تقـــدمت نحـــوه وقلـــت بلطـــف قـــول مـــن يتضـــرعُ :
أيا ابن أخي من أنت ؟ما اسمك ؟ما الذي عراك ؟ فلـــم تفـــرح ، فهـــل أنـــت موجـــعُ ؟
وأعـــرضَ عنـــي بعـــد نظـــرة يائـــس وراح ولـــم ينـــبس إلـــى حيـــث يهـــرعُ
وإنـــي وإن جـــارت علـــيّ مـــواطني فـــؤادي علـــى قطّانهـــن مـــوزعُ
ألا فـــاكتبوا صـــك النهـــوض إلـــى العـــلا فـــإني علـــى مـــوتي بـــه لـــموقعُ

ويصور أحمد مطر طفلا آخر وجده يخرج من تحت أنقاض المنازل التي هدّها القصف ، ولكنه يصور فيه قضية الإنسان الذي يقبع تحت نير الظلم في هذا التابوت الممتد من المحيط إلى الخليج ، وعلى عادته ـ دائما ـ يصرّح بأن الخلاص لا يكون إلا بامتلاك أسباب القوة ، الحل ـ في نظره دوما ـ يكون بالثورة على الوضع القائم [٤٣] :

كـــان يحبـــو بـــين أنقـــاض المنـــازل
فـــارغ العينـــين مقطـــوع الأنامـــل
غارقـــــا وســـــط دم القتلـــــى
وأحـــزان اليتـــامى والثكـــالى والأرامـــل
فمـــــه يصـــــرخ : باطـــــل
دمـــــه يصـــــرخ : باطـــــل
صـــــمته يصـــــرخ : باطـــــل

قلـــت : لـــن تجـــدي عطـــور الـــورد
فـــي هـــذي المزابـــل
نحـــن فـــي التـــابوت مـــا بـــين محـــيط وخلـــيج
نحـــن فـــي غابـــة مـــوت وضـــجيج
كـــل صـــوت صـــاعد لـــن يُســـمع الآن
وهـــذا القصـــف نـــازل
لا تحاول
إن صـــوت الحـــق باطـــل
سيدي القانون
هذي غابةٌ
إن شـــئت أن تجتازهـــا
فاحمـــل قنابـــل

وفي قصيدة أخرى للرصافي يمتزج الحس الإنساني مع الوعي بالمعاناة الاجتماعية في وصف أم اليتيم وسط عالم لا يعبأ بالأمهات وآلامها في خضم احتفاله بالمال وضياع القيم الإنسانية النبيلة ، ليتخلص أخيرا إلى القول : بأن بكاء اليتيم الجائع هو أكبر المآسي وأدهاها [٤٤] :

وأكبـــر مـــا يـــدعو القلـــوب إلـــى الأســـى بكـــاء يتـــيم جـــائع حـــول أيّـــم

فاليتم معضلة إنسانية ، وإن أضيف إليها الجوع صارت معضلة أكبر ، وأما إذا تواجدت كظاهرة اجتماعية صار استعراضها أقرب إلى النقد السياسي المبطن لأولي الأمر الذين ساروا بالناس إلى حيث يجتمع اليتم والفقر والخوف بمساحات شاسعة في بلد يعمر بالخيرات والنعم ، لذا نجد من الناس من يرى أن الشاعرية الحقة هي التي يجب أن تتجه هذا الاتجاه الإنساني ، حيث يقول أحد الباحثين : (الزهاوي والرصافي شاعران ـ شئنا أم أبينا ـ وهما كبيران في تأريخ الأدب العربي) [٤٥] ، ولعل البعض يرى في شعر الرصافي شيئا من الخطابية المباشرة التي تنأى به عن الشاعرية وتجعله أقرب ما يكون الى الاتجاه النثري الذي يخلو من المعاني الفنية المحكمة ، وفضلا عن الطابع النثري يرى د. علي عباس علوان أن الرصافي كان من أولئك الشعراء الذين ظهرت في قصائدهم نزعة خطابية مرتبطة أساسا بظاهرة الوعظ والإرشاد ، وهي سمة غير مقبولة فنيا ، لأن (كثرة النداءات والأوامر والنواهي في القصيدة يفقدها عادة عنصر النعومة والسيولة ، فإذا ذهن المتلقي يصطدم بين الفينة والفينة بنبرة حادة قارعة مثيرة) [٤٦] .

لا يمكن لمن ينعم النظر في مثل هذه الحالات الإنسانية التي نبه الشاعران إلى وجودها بضجيج يصم الآذان ويدمي القلوب إلا أن يسجل موقفا تقديريا لمن يكون غرضه من فنه وإبداعه خدمة شعبه وتصوير معاناته ، عسى أن تكون فيها موعظة وعبرة لمن يمن الله عليه بتولي زمام السلطة في بلده ، فتكون الكلمة المعبرة ذات صدى مسموع ، ينبه ـ دائما ـ إلى وجوب الرأفة مع شعب تجرع أشكال المرارات ، فإذا لاقت الكلمة الصادقة قلبا كريما ـ عند ذوي السلطة ـ حققت مأربها ورسخت ـ على مر الدهور ـ علامة تميز صاحبها بانتمائه الصادق لفئة البسطاء من الكادحين والبائسين ، وابتعاده عن أصحاب الِشأن والسلاطين ، وبهذا يكون من الشعراء الشعبيين الذين لم يخل منهم ديوان الشعر العربي في أي عصر من العصور .

الخاتمة:

بعد هذا كله يمكن الخروج بنتيجة مفادها أن الرصافي ـ بحسب استقرائنا لأمثلة متعددة من شعره ـ شاعر إنساني ثائر ، غرس جذوره النفسية والفكرية عميقا في أرض الواقع الاجتماعي للعراق والأمة العربية عموما ، وترك لشعره أن يكون ناطقا عن صلته الفعلية بجماهيره وأمته ، ومشاركته لهما في

المعاناة المستمرة ، ومكابدة الظرف السياسي القاسي والاقتصادي المتردي ، ولم يتجه إلى توظيف إبداعاته الفكرية والفنية في دعم الموقف السياسي لسلاطين عصره ، أو يجعل مضامين شعره مسرحا للدعاية السياسية المباشرة لأولئك السلاطين ومن دار في فلكهم ممن تنكر لشعبه وآمالهم ، واكتفى بجني الثمار لنفسه ولخاصته ، تاركا مجتمعه غارقا في الجهل والسقام ، وكما أشرنا سابقا إلى أن في المنجز الجماهيري للرصافي ميزة مهمة تمثلت في مزجه المتواصل بين شعوره العاطفي الثائر بمعاناة شعبه ورؤيته الواقعية الحكيمة لما يجده مخرجا له من تلك المعاناة ، ولاشك في أن مثل هذه الميزة إن توافرت في شعر أحد الشعراء كان خليقا أن يكون شاعرا شعبيا قادرا بإمكاناته الفنية أن يترك بصمات واضحة في مسيرة شعبه ، وكما قالوا في الأثر : (أن الشاعر إذا مات لا تحييه أمة ، وأن الأمة إذا ماتت يحييها شاعر) ، وهو في الحقيقة ما حاول الرصافي معالجته مع وجود اختلاف في تقييم الناس لمواقفه تبعا لاختلافهم في زوايا النظر إليها أو منطلقات محاكمتها .

أما أحمد مطر فتتجلى في قصائده الكبرياء الإنسانية التي يراها أرفع من كل ظالم وأعظم من كل سلطة ، فهو يريد أن يعيد للإنسان قيمته الحقيقية التي أُنزل بها ، فإن الله لمّا خلقه لم يكن ثمة تابع ومتبوع ، ولكن الأطماع الإنسانية والمصالح الكبرى هي التي أوجدت هذا التفاوت ، وهذه الطبقية بين الناس .

أحمد مطر يدعو ـ دائما ـ إلى الثورة على الظلم والاستبداد والتسلط ، وقد قصر كل حياته وشعره على الدفاع عن حق الإنسان في الوطن العربي ، لم يكتب في أي غرض من أغراض الشعر إلا قضيته الكبرى التي وهب لها نفسه ، ولذلك هو جدير بحق أن يكون شاعر الحس الشعبي ، لأن إحساسه بمعاناة الإنسان ما كان له حدود .

أخيرا يمكن القول : أن الرصافي وأحمد مطر لم يتجها إلى الفنون الشعرية الخالصة ، إذ لم يكن من اليسير عليهما الاتجاه إلى الحب والغزل ووصف الطبيعة الساحرة التي لا يكون للسياسة أو النظام سلطان عليها ، لأنهما كانا أقرب إلى معاناة الناس وهموم الفقراء .

الهوامش :

(١).أسطورة الأدب الرفيع : ٣٣.
(٢).المصدر نفسه : ٥٢.
(٣).ينظر الرصافي حياته ـ آثاره ـ شعره (عبد الحميد الرشودي) : ١١ وما بعدها .
(٤).لغة الشعر الحديث في العراق بين مطلع القرن العشرين والحرب العالمية الثانية(د. عدنان حسين العوادي): ٢٤٥.
(٥).شعر الحرب عند العرب (نوري حمودي القيسي) : ٧.
(٦).الشعر العراقي الحديث (د. جلال الدين الخياط) : ٥٣.
(٧).أحمد حسن الزيات ، مجلة الرسالة ، ع ٦١٣ ص ٧٢.
(٨).أجمل أشعار أحمد مطر ونبذة عن حياته (بنان أبو عيد) : ٨.
(٩).الشاعر والجمهور (د. علي شلش) : ٢٥ـ٢٦.
(١٠).استقبال النص عند العرب (رضا محمد مبارك) : ٧٤.
(١١).ديوان الرصافي : ١٦/٣.
(١٢).المصدر نفسه : ٧٧/٥.
(١٣).ديوان أحمد مطر : ٣٨٣.
(١٤).ديوان الرصافي : ٣٤٩/٣ـ ٣٥٠.
(١٥).ديوان أحمد مطر : ٥٠.
(١٦).ديوان الرصافي :
(١٧).ديوان أحمد مطر : ٣٥٣.
(١٨).المصدر نفسه : ٣٤٨.
(١٩).ديوان الرصافي : ١٩١/٣.
(٢٠).المصدر نفسه : ٣/ ٢٧٠.

(٢١).المصدر نفسه : ٣/ ٢٦٢.
(٢٢).ديوان أحمد مطر : ٤١.
(٢٣).المصدر نفسه : ٥١٠.
(٢٤).المصدر نفسه : ٢٠٧.
(٢٥).ديوان الرصافي : ٣/ ١٤٠-١٤١.
(٢٦).ديوان أحمد مطر : ٩٧.
(٢٧).ديوان الرصافي : ٣/ ١٦٧- ١٧٠.
(٢٨).المصدر نفسه : ٣/ ١٧٠.
(٢٩).ديوان أحمد مطر : ٣٥٥.
(٣٠).ديوان الرصافي : ٣/١٢٣- ١٢٤.
(٣١).ديوان أحمد مطر : ٣٢٨.
(٣٢).ديوان الرصافي : ٢/٢٧٥.
(٣٣).المصدر نفسه : ٣/١٢١.
(٣٤).الشعر العراقي المعاصر ، قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية : ٣٩٥.
(٣٥).ديوان أحمد مطر : ٤١٣.
(٣٦).ديوان الرصافي : ٣/١٣٠.
(٣٧).ديوان أحمد مطر : ٤٣١.
(٣٨).استقبال النص عند العرب : ٧٤.
(٣٩).ديوان الرصافي : ٤/٥٩.
(٤٠).ديوان الرصافي : ٤/ ٦٤.
(٤١).ديوان أحمد مطر : ٢٠٣.
(٤٢).ديوان الرصافي : ٢/ ٥٨-٦١.
(٤٣).ديوان أحمد مطر : ١٢٧.
(٤٤).ديوان الرصافي : ٢/ ٣٧.
(٤٥).مجلة الرابطة : العدد ٤١ / ٥٤ .
(٤٦).تطور الشعر العربي الحديث في العراق / اتجاهات الرؤيا وجماليات النسيج : ١٥٣- ١٥٤ .

المصادر والمراجع

(١) أجمل أشعار أحمد مطر ونبذة عن حياته : بنان أبو عيد ، دار حمورابي للنشر والتوزيع ، الطبعة الأولى ، عمان ، الأردن ٢٠٠٧م .
(٢) استقبال النص عند العرب:د. محمد رضا مبارك،المؤسسة العربية للدراسات والنشر،الطبعة الأولى،بيروت ١٩٩٩م.
(٣) أسطورة الأدب الرفيع:د. علي الوردي،منشورات سعيد بن جبير،الطبعة الأولى،قم المقدسة ، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م
(٤) تطور الشعر العربي الحديث في العراق ، اتجاهات الرؤيا وجمال النسيج : د. علي عباس علوان ، مطبوعات وزارة الثقافة والإعلام ، بغداد ١٩٧٥م .
(٥) ديوان أحمد مطر (الأعمال الشعرية الكاملة) : الطبعة الثانية ، لندن ٢٠٠١ .
(٦) ديوان الرصافي: شرح وتعليقات: مصطفى علي،منشورات وزارة الإعلام في الجمهورية العراقية،بغداد ١٩٧٥م .
(٧) الرصافي حياته - آثاره - شعره:عبد الحميد الرشودي،دار الشؤون الثقافية العامة،الطبعة الأولى،بغداد ١٩٨٨ م .
(٨) الشاعر والجمهور:د.علي شلش،وزارة الثقافة والإعلام،مهرجان المربد الثامن،دار الحرية للطباعة،بغداد ١٩٨٧م .
(٩) شعر الحرب عند العرب :د. نوري حمودي القيسي،الموسوعة الصغيرة، منشورات دار الجاحظ ، بغداد ١٩٨١م .
(١٠) الشعر العراقي الحديث مرحلة وتطور : د. جلال الخياط ، دار الرائد العربي ، بيروت .
(١١) الشعر العراقي المعاصر قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية:د. عز الدين إسماعيل،دار الفكر العربي،الطبعة الثالثة.
(١٢) لغة الشعر الحديث في العراق بين مطلع القرن العشرين والحرب العالمية الثانية : د. عدنان حسين العوادي ، منشورات وزارة الثقافة والإعلام ١٩٨٥م .

الدوريات :

(١)مجلة الرابطة ، العدد ٤١ ، السنة الثانية .
(٢)مجلة الرسالة ، العدد ٦١٣ مارس ١٩٤٥م .

Abstract

The folk sense has form great impact in the mentality of the modern Arabic poet , That had effected on his poetic production , therefore the poetry carry the people problems and live with their tragedy, Rasfi and Ahmed Matter represents clear guide for the folk sense to appear to the new and modern poet , So this research was trying to reach the truth of the folk privacy in the poetry of those two poets.

مجلة القادسية للعلوم الانسانية
منبر للاعلان العلمي
للمراسلات والمعلومات
جامعة القادسية / كلية الآداب
الديوانية – العراق
ص.ب : ١٨١٢